ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي

محمد المنوني

أستاذ في المعهد الديني بمكناس

من الظواهر التي برزت في عصر الدولة السعدية، عهد احمد المنصور الذهبي وابنائه ، ظهور طبقة من المترجمين ، كانوا يشتغلون ـ بالمغرب على ضآلة عددهم ـ بنقل نصوص علمية ، من بعض اللغات الاوربية الحية ، الى اللغة العربية .

وأود ـ قبل الدخول في تفاصيل هذا الموضوع ـ ان أنبه الى انه وقع في غير العصر السعدي ـ ايضا ـ اشتغال مغربي ببعض اللغات الاجنبية ، وبترجمتها الى العربية ، وهذا ما يبتدىء به التمهيد لهذا البحث فيما يلي :

ان اهتمام المغرب بهذه الناحية يبتدىء من ايام الموحدين : على عهد يوسف الاول ، فان هذا هو صاحب فكرة تعريب كتب أرسطو من اليونانية ، وباقتراحه وضع ابو الوليد محمد ابن رشد الحفيد القرطبي ، ما نقله من مؤلفات أرسطو الفلسفية (1) .

ولم يخل العصر المريني من بعض افراد يعرفون اللغة الاسبانية ، ويستخدمونها في نطاق الترجمة الرسمية لدى بعض ملوك بني مرين ، ولا يزال عدد المعروف من هؤلاء لا يتعدى اثنين :

الاول ـ ابو العباس بن الكماد ، ترجمان السلطان أبي ثابت عامر بن ابي عامر عبد الله بن يوسف المريني (2) .

الثاني ـ كان ترجمانا لدى السلطان ابي الحسن المريني ، ويحمل اسم مسعود (3).

واللغة البرتغالية ـ هي الاخرى ـ كان يتقنها احد ملوك المغرب في العهد الوطاسي ، وهو محمد البرتغالي ابن محمد الشيخ الوطاسي ، ثاني ملوك هذه الدولة، والمتوفى سنة 931 هـ. ـ 1524 م. ، قال الوزان الفاسي في كتابه : «وصف افريقيا» (4) في صدد الحديث عن هذا الملك «ولقب بالبرتغالي ، لانه اسره البرتغال ايام ابيه في اصيلا ، ومكث عندهم سبع سنين ، ولما افتداه ابوه ورجع ، وجد يتقن البرتغالية، فلقب بالبرتغالي» .

واذا تخطينا عصر السعديين الى العهد العلوي ، نجد السلطان اسماعيل بن الشريف ، يتخذ اسيرا اسبانيا «برنار يوسي» لتعليم اللغة الاسبانية لاثنين من اولاده (5).

كما انه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر م. برقت ـ بالمغرب ـ بارقة للترجمة ، تحت رعاية

---

1) انظر المعجب «ط» مطبعة السعادة بمصر ص 159

2) مجموعة مراسلات الملوك المسلمين ، مع ملوك أراغون وكتلونية ، ص 162 ـ 163، طبع مدريد 1940.

3) المصدر الاخير ص 196 ـ 198 .

4) «حياة الوزان الفاسي وآثاره» ص 13.

5) المنزع اللطيف ، في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف ، اثناء الباب الرابع ، وهو لا يزال مخطوطا .

السلطان محمد الرابع ، ثم على عهد ابنه الحسن الاول، وقد تناولت تعريب بعض النصوص الاوربية الحديثة (1) .

وهكذا يتبين من هذا العرض المقتضب ، وقوع اشتغال مغربى ـ خارج الاطار السعدى ـ ببعض اللغات الاجنبية ، وبالترجمة عنها الى العربية ولو ان ذلك قليل ، كما يتبين ـ ايضا ـ وجود معلومات ـ وان كانت محدودة ـ عن حركة الترجمة العلمية الواقعة اثناء كل من العصرين الموحدى والعلوى .

وعلى عكس ذلك ، فان حركة التعريب فى العصر السعدى بقيت غير معروفة ، ومهمة هذا البحث ، هى محاولة الكشف عن هذه الظاهرة السعدية .

ولنذكر اولا ، ان مرد هذه الظاهرة يرجع الى عدة مؤثرات اوجدت هذه الحركة التعريبية .

فهناك الجاليات المدجنة (2) التى توافدت على المغرب بكثرة فى هذه الفترة .

وهناك الاسرى المغاربة وغيرهم ، ممن طالت مدة اسرهم ، حتى تعلموا لغة البلاد المأسورين بها ثم عادوا من معتقلاتهم الى المغرب .

وهناك الاحتكاك الذى تضاعف ـ آنذاك ـ بين المغاربة والمسيطرين على عدد من شواطىء الوطن : من برتغال واسبان .

وهناك التأثر ببعض الشخصيات المغربية السامية، مثل السلطان السعدى عبد الملك المعتصم بن محمد الشيخ : فقد كان يفهم اللغة الاسبانية جيدا ويكتب بها وباللغة الايطالية (3) ، ومثل السلطان الوطاسى: محمد البرتغالى الآنف الذكر (4) الذى كان يتقن البرتغالية .

وسبب خامس واخير: وهو محاولة المغرب للاستفادة من معطيات حركة الانبعاث باوربا ، والعمل لاسهام مغربى فى بوادر النهضة الاوربية الحديثة .

وهكذا انبثق عن هذه المؤثرات الخمسة ، ظهور حركة تعريبية لمعت من المغرب السعدى ، ومن المؤسف ان لا يستطيع هذا البحث ، ان يقدم سوى عدد ضئيل ، لا يتجاوز اربعة من رجال التعريب فى هذا العهد، قاموا بترجمة اربعة كتب ، ومع تفاهة هذه الكمية ، لا يسع الباحث الا ان يرحب بها ، ويكبر المصادر التى حافظت عليها :

1 ـ ابو القاسم الغسانى :

هذا اول رجال التعريب الاربعة ، وهو ابو القاسم ابن محمد بن ابراهيم الغسانى ، الشهير بالوزير ، الاندلسى ثم الفاسى ، ولد عام 955هـ/1548م ، وبقى يقيد الحياة الى ما بعد عام 1000هـ/1592م، اما تاريخ وفاته فهو مجهول (5) ، عالم اديب طبيب ، تفرد بمشيخة الطب بفاس ومراكش ، وتوجد ترجمته بعدة مصادر مغربية (6) ، ومنها : «روضة الآس ، العاطرة الانفاس ، فى ذكر من لقيت من اعلام الحضرتين : مراكش وفاس» (7) ، وهو اسم رحلة قام بها ـ فى المدينتين ـ جامعها ابو العباس احمد بن محمد المقرى

---

(1) هذا الموضوع لا يزال بحاجة الى بحث على حدة وتوجد نتفة منه فى «مظاهر يقظة المغرب الحديث» مجلة «تطوان» ـ سنة 1961 ـ العدد السادس .

(2) المدجنون هم المسلمون الاندلسيون الذين لبثوا تحت حكم المسيحيين المتغلبين على بلادهم ، وقد كانوا كثيرا ما يضطرهم تفاقم الاضطهاد عليهم الى الرحيل لبلاد الاسلام .

(3) «المغرب الاقصى» مطبعة دار الطباعة الحديثة بمصر ، ص 35 ، مجلة «تطوان» ـ العدد السادس ـ ص 146 و150 .

(4) ص. 1

(5) مما يؤكد هذا ان محمد بن الطيب القادرى اورده فى «التقاط الدرر» فى خاتمة المائة الحادية عشر التى ذكر فيها من لم يقف على تعيين زمن وفاته من اهل هذه المائة ، وهذا المصدر لا يزال مخطوطا ومنه نسخ فى خزائن خاصة وعامة .

(6) منها «درة الحجال» رقم 1347 .

(7) نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 220 ، وهي نسخة وحيدة مكتوبة بخط مؤلفها ، وتشتمل على بعض الباب الثانى والباب الثالث من الكتاب ، عدد الصفحات الموجودة 326 . ويعود الفضل فى اكتشافها الى الاستاذ الجليل السيد عبد الوهاب ابن منصور .

التلمسانى ، نزيـل فاس ، والمتوفى سنـة 1041هـ. 1631م .

وفى هذه الرحلة يذكـر المقرى قصة اشتغـال الغسانى بالتعريب ويقول :

«ولـه جملـة تآليف رفعها الى المقـام الاحمدى المنصورى العلوى ... ومنها «مغنى اللبيب ، عن كتب أعداء الحبيب» ، وذلك انه قـدم عـلى أمير المؤمنين ـ المنصور السعدى ـ بعض اكابر الروم ، فأتحفـه بهذا الكتاب ، مكتوبا بالقلم الاعجمى ، فعربه الشيخ أبقاه الله ، وجعل له خطبة ، وزاد فيه زيادات واسماه بما ذكر».

ان هذه الفقرات ، تفيدنا ـ بدون التباس ـ اسم مغربى اشتغل بالتعريب فى هذه الفتـرة ، وتحدد عنوان الترجمة التى انجزها ، كما تذكر انه اضاف للنص الاصلى زيادات ، وهذا قد نستفيد منه بعض جوانب منهج الغسانى فى التعريب .

وفوق هذا فان هذه الفقرات تحقق وجوديةالترجمة الغسانية ، لما تذكر انها من جملة التآليف التى رفعها أبو القاسم الغسانى الى المنصور السعدى .

وان المقرى يزيد هذه الوجودية تأكيدا لما يذيـل النص السابق بهذه الكلمات :

«وفيه ـ يقصد «مغنى اللبيب» ـ يقول ـ حفظه الله ـ مخاطبا أمير المؤمنين نصره الله ، ووافق ذلك الزمان ، قدوم البشير بفتح السودان :

هنيئا لك المنصور دانت لك الدنا
وذلت لـك الاملاك ذل الترهب
فضضت ختاما لم يفض لسابـق
بفتح الزنـوج **والكتاب المعرب**

فهذا النص الاخير يزيد واقعية الترجمة الغسانية تأكيدا ، ويحدد تاريخها بعام 1000هـ/1592م حيث ان هـذا هـو تاريخ فتح السودان على يد المنصور السعدى .

هذا ويوجد بالخزانة الملكية ، مخطوط طبى يقع ضمن مجموع ، يحمل رقـم 2877 ، وهـو عبارة عن قطعة مبتورة الطرفين ، وتتألف من 26 ص، ويهمنا من هذه القطعة انها لما تحدثت عن «العشبة الرومية»(1) ختمت الحديث عنها بهذه العبارة :

«ونحن وقفنـا عنهـا مصورة فى الكتاب الرومى المعروف ـ تصحيف عن المعرب ـ لمولانا ابى العباس المنصور» .

فهذا الكتاب الرومى المعرب ، لا يبعد ان يكون هو «مغنى اللبيب» لانه هـو الكتـاب الوحيـد المعروف ـ لحد الآن ـ تعريبـه برسم ابى العبـاس المنصور السعدى .

واذا ترجح هذا فهو يضاعف الامل فى العثور على الترجمة الغسانية فى يوم ما . كما يفيد ان مادة الكتاب المعرب هى الطب ، ويقرب هذا ان هذه المادة هى الفن الذى برز فيه ابو القاسم الغسانى حتى قال عنه فى «روضة الآس» : انه تفرد بعلـم الطب بالحضرتين : «فاس ومراكش» .

ويقرب هذا ايضا ما سجله ابو القاسم هـذا فى افتتاحية «حديقة الازهـار» من ان اهتمـام المنصور السعدى بالطب كان فوق كل اهتمام .

وبعد هذا نذكر ان المقرى لم يوضح اللغة التى نقل عنها الكتاب ، واكتفى بالتصريح بأن الاصل مكتوب بالقلم الاعجمى ، وهى كلمـة تتسع لاكثـر من لغـة اجنبية ، على ان هذا لا يبعد ان يعنى بها احـدى اللغتين : البرتغالية او الاسبانية ، استنادا لما تقدم فى صدر هذا البحث ، من وجود العارفين باللغتين ـ معا ـ بالمغرب ، واذا كان لنا ان نرجح احـدى اللغتين فهى البرتغاليـة ، التى يبـدو انهـا كانت ـ آنذاك ـ اكثر استعمالا بالمغرب .

2 ـ ابو محمد المسفيوى :

هو ابو محمد الحسن بن احمد بن الحسنالمسفيوى المراكشى المولود سنة 968هـ/1560م (2) وتاريخ وفاته مجهول .

---

1) هى التى صارت تعرف بعد بـ «العشبة الهندية» نسبة للهند المغربية التى كان يقصد بها ـ اذ ذاك ـ امريكا ، وهى موضوع الرسالة المعنونة بـ «النفحة الوردية فى العشبة الهندية» تاليف عبد القادر بن العربى ابن شقـرون المكناسى ، مخطوطة فى بعضالخزائن الخاصة .

2) له ترجمة وجيزة فى «درة الحجال» رقم 357،وقد خلت من تاريخ وفاته .

أديب مشارك مع رسوخ في الطب حسبما في «روضة الآس» التي تثبت له «تعريبه لبعض الكتب الطبية» .

وان هذه النفثة من المقرى تفيد ـ بوضوح ـ اسم مغربي ثان ، اشتغل بالتعريب ـ في هذا العصر ـ في مادة الطب ، وبعد هذا لا نستفيد شيئا آخر عن عمل المعرب في هذه الترجمة ، فلا نعلم اسم الكتاب المعرب بالذي لا يزال في حكم المفقود ، كما لا نعرف خطته في الترجمة ، ولا اللغة التي وقع التعريب عنها.

وفي خصوص هذه الملاحظة الاخيرة ، يمكن ان نقول : **ان الكتاب عرب عن احدى اللغتين الآنفتي** الذكر ، او البرتغالية بالخصوص ، استنادا على ما ذكر بصدد الترجمة الغسانية ، سيما والمترجم المسفيوى تلميذ للغساني في فن الطب ، كما تسجل هذا «روضة الآس» .

3 ـ الشهاب احمد الحجري :

هذا ثالث رجال التعريب في هذه الفترة ، وهو اندلسي متمغرب ، حيث انه اقام بالمغرب ما يزيد على 38 سنة .

ولا توجد له ترجمة في المراجع المعروفة ، وما اكثر امثاله من الذين ضاعت تراجمهم ، وانما يعثر بين الفينة والفينة على بعض موضوعاته التي توضح جوانب من حياته، وهذه هي التي سنستعرضها ـ قبل الحديث عن عمل الحجري في ميدان التعريب ـ لنحاول ان نستخلص منها ما يلقي بعض النور على ترجمته ، ولهذا سيتسع الحديث عن حياته ، على عكس الواقع في المعربين السابقين حيث توجد لكل منهما ترجمة ـ ولو محدودة ـ في مراجع متداولة .

ان اول آثار الحجري ظهورا ، هي فقرات من رحلته المعنونة بـ «رحلة الشهاب ، الى لقاء الاحباب» ، وقد وردت هذه الفقرات ـ كاملة ـ في «زهر البستان» ، في نسب اخوال مولانا زيدان» (1) لمحمد العياشي (2). وعن هذا المصدر نقلها المؤرخان : السيد عباس بن ابراهيم في «الاعلام» بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» (3) . مع محمد العبدي الكانوني في «جواهر الكمال ، في تراجم الرجال» (4) ، كما ان اليفرني في «نزهة الحادي» (5) اختصر من تلك الفقرات ما نقله بالمعنى واورده من حفظه .

الاثر الثاني : قطعة من كتاب وضعه الحجري في الرد على المسيحيين واليهود ، وسنتبين ان هذا الكتاب يسمى «ناصر الدين ، على القوم الكافرين» وتوجد كراريس منه في حوزة الاستاذ المستشرق جورج كولان ، حيث وقف عليها الاستاذ الكبير محمد الفاسي مدير جامعة محمد الخامس ، وقد لخصها تلخيصا وجيزا في موضوعه «الرحالة المغاربة وآثارهم» (6).

الثالث : ترجمة لكتاب في فن المدفعية ، قام بها الحجري وسماها : «كتاب العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع» ، وسنتحدث عن هذه الترجمة بعد ، بما انها من صميم موضوعنا ، ويهمنا الآن منها خاتمتها التي توجد في نسخة الخزانة العامة بالرباط ج. 87 ، وقد كتبها الحجري بقلمه ، وذيل بها الكتاب المترجم .

وفي هذه الخاتمة نظفر بمعلومات قيمة جدا عن حياته ، فاذا اضفناها للمعلومات القليلة التي يمدنا بها الاثران السابقان نكون قد اطلعنا على جوانب مهمة من حياة الحجري ، وهي التي سنستعرض هنا مشفوعة بالتوضيحات المطلوبة :

---

1) توجد منه نسخ متعددة ، ومنه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، تقع ضمن مجموع يحمل رقم د 2152 .
2) له ترجمة في «اتحاف اعلام الناس» لابن زيدان ج. 4 ص 100 ـ 105 .
3) الجزء الثاني ص 69 ـ 72 .
4) ج 1 ص 87 ـ 93 .
5) طبع فاس ص 99 .
6) مجلة «دعوة الحق» السنة الثانية ـ العدد الثالث ص 22 .

انه يقدم اسمه هكذا : احمد بن قاسم بن احمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى الاندلسى (I) ، وهو يلقب بشهاب الدين وبآفوقاى (2) .

اما الجهة التى ينتسب لها من الاندلس فقد تفيد كلمة الحجرى انها قرية «أحجر» الواقعة حوز غرناطة. وهى التى يعتقد البعض انها محرفة عن قرية الحجر (3).

ولا يعارض هذا ما فى «رحلة الشهاب» من تصريحه بأنه ـ قبل هجرته للمغرب ـ كان يسكن بأشبيلية، لان هذه كانت من بين المدن التى صار اليها بقايا الاندلسيين باسبانيا بعد ما طردوا عن السكنى فى غرناطة وناحيتها (4) .

وفى صدد حياته بالاندلس وهجرته الى المغرب ، يذكر ان اول ما تكلم به ببلاد الاندلس كان بالعربية، ولما كانت محاكم التفتيش تعاقب كل من يقرأ العربية، تعلم اللغة الاسبانية واقتصر فى بادىء الامر على دراسة ما يحتاج له للمخاطبة والمخالطة ، ثم خطرت له فكرة الهجرة الى بلاد الاسلام ، ولكنه وجد أن بقايا الاندلسيين كانوا ممنوعين من الوصول للبلاد الشاطئية ، خشية ان يفروا منها الى البلاد الاسلامية، وهنا قر عزمه على التعمق فى دراسة الاسبانية ، ليؤثر بثقافته العالية على الاسبانيين حتى يحسبوه اسبانيا اصيلا ، ويمكنه الوصول للبلاد الشاطئية ، وهكذا اعتكف ـ سنين ـ على دراسة الاسبانية حتى برز فيها .

وقد نجح الحجرى فى تصميمه ، واستطاع ان يصل الى احدى بلاد الاندلس الشاطئية التى سافر منها تحت ستار اسبانى الى بلاد الاسلام (5).

وكان سفره من مرسى «شنتمرين» (6) على متن سفينة تحمل القمح للبريجة «مدينة الجديدة الحالية» ومن هذه المدينة فر الى داخل المغرب الاقصى ، فدخل مدينة آزمور واتصل بقائدها الذى كتب للمنصور الذهبى فى شأنه ورفيقه الذى هاجر معه فاجابه بأن يستحضرهما معه فى حضوره لعيد الاضحى الذى كان قريبا ، وهكذا سار الحجرى ورفيقه فى صحبة قائد آزمور حتى وصلوا الى محلة سلطان المغرب التى كانت مخيمة بتانسيفت بسبب وباء كان بمدينة مراكش (7). وقد كان هذا الوباء فى سنة 1007، ومن هذا نعلم تاريخ اتصاله بالمنصور وسنة هجرته للمغرب (8).

اما عن حياته بالمغرب ، فيستفاد من بعض كلامه انه استوطن مدينة مراكش طيلة مقامه بالمغرب (9). وقد امتدت هذه الاقامة من اواخر سنة 1007هـ حتى سنة 1046 هـ.

وهو يذكر ـ فى اعتزاز ـ انه كان ترجمانا لدى السلطان زيدان بن احمد المنصور السعدى سنين عديدة ، وكان ـ ايضا ـ كاتبه باللسان العجمى «الاسبانى» ثم قام بالترجمة عن السلطانين ولديه (10) اللذين لم يسمهما ، ولا شك انه يقصد ابا مروان عبد الملك بن زيدان ، واخاه الوليد بن زيدان ، وقد كانت مبايعة عبد الملك بعد وفاة زيدان ، الواقعة فى المحرم عام 1037هـ/1627م ، ووفاته فى 6 شعبان 1040هـ 1630 م ، وفى نفس هذا التاريخ بويع الوليد المتوفى فى 14 رمضان 1045هـ/1635 م.

---

(1) العز والمنافع ـ ورقة 112 ب .

(2) «زهر البستان» قدم الفقرات التى نقلها عنه هكذا : «ففى رحلة شهاب الدين الحجرى الاندلسى المعروف بآفوقاى» واقتصر فى «الصفوة» على تلقيبه بآفقاى .

(3) انظر «الاحاطة ، فى اخبار غرناطة» المجلد الاول ص 134 ، الطبعة الثانية .

(4) قصة هذا الطرد اشار لها فى خطبة «العز والمنافع» ، ورقة ـ أ ـ ب.

(5) العز والرفعة ، ورقة 116 ب 117 ـ أ .

(6) شنتمرية الغرب ، وهى مدينة اسلامية قديمة، من مدن كورة اكشونبة ، وتقع جنوبى غربى الاندلس، وقد استولى عليها البرتغاليون نحو سنة 652هـ/1253م قال فى الروض المعطار ص 115 : «وشنتمرية على معظم البحر الاعظم ، سورها يصعد ماء البحر فيه اذا كان فيه المد» .

(7) رحلة الشهاب

(8) «جواهر الكمال، فى تراجم الرجال» ج 1 ص 93.

(9) هذا يوخذ من اول خاتمة «العز والمنافع» ورقة 112 ب .

(10) «العز والمنافع» ورقة 112 ب.

والحجرى يتحدث عن سفارة قام بها الى فرنسا ، وكانت عن زيدان فيما يظهر ، وقد زار فيها باريس، وبوردو ، والهافر ، وبعد قضاء مهمته فى فرنسا ابحر الى هولندا ، ودخل امستردام ولايدن ، ثم ذهب الى لاهاية ، واتصل بأميرها ، فطلب منه هذا الامير ان يفصل له الكلام على طـرد الاسبـان للمسلمين من الاندلس ، فأجابه لطلبه .

وفى كل من فرنسا وهولاندا ، جرت له مناقشات دينية ، مع القسيسين والرهبان ، واحبار اليهود ، وهو فى الرد على هؤلاء ـ جميعا ـ يحتج عليهم بالانجيل والتوراة ، وقد درس ترجمتيهما بأوربا لهذه الغاية ، واستعملها فى مناظراته التى يذكر انه وفق فيها مرارا عديدة (1).

وعدى اتصال الحجرى بملوك المغرب ، فقد كانت له علاقة ببعض علمائه ، حيث يذكر انه أخـذ علم النجـوم بمدينة مراكش عـن الفقيـه احمد المصيوب الفاسى (2) ، كما يتحدث عن مجالسته لقاضى الجماعة بنفس المدينـة عيسى بن عبـد الرحمن السكتى (3) «السكتانى» .

وبعد هذا نذكر ان الحجرى بعد اقامته الطويلـة بالمغرب سافر عنه لاداء فريضة الحج فى تاريخ سيحدد بعد ، وهو يذكر عن سفره هذا انه جاء من مدينـة مراكش الى قصبة سلا ورباطها ـ على حد تعبيره ـ وركب البحر هناك فحج وزار السيد الرسول صلوات الله تعالى عليه وعلى اله (4) ثم عـرج فى ايابـه على مصر ، وممن اتصل به هناك عالمها الشيخ على (بن محمد بن عبـد الرحمن) الاجهـورى (5) الذى اشار عليه بوضع كتاب عن مناظراته مع المسيحيين واليهود بأوربـا ، فجمع تأليفـا فى هذا الموضوع وسمـاه : «ناصر الدين ، على القوم الكافرين» (6) وهـو الذى توجد كراريس منه لدى المستشرق الفرنسى جورج كولان (7) ، يقـع كتاب ناصر الدين فى اثنى عشر بابا ، وقد فرغ من تأليفه بمصر يوم الجمعة 21 ربيع الثانى سنة 1047هـ/1637م (8).

وهذا التاريخ قد يحدد سنة رحلة الحجرى عن المغرب للحج ، اذا قدرنا انه عاد من الحرمين الشريفين الى مصر اثر فراغه من مناسك الحج والزيارة ، وهذا قد يؤيده حديثه عن رحلته للحج ، حيث انه لم يذكر انه جاور بالحرمين الشريفين ، كما لم يذكر انه اطال المقام بمصر ، وبهذا يقدر انه سافر عن المغرب للحج فى سنة 1046هـ/1636م ، ويقرب هذا ان ثالث الملوك السعديين الذى قام بالترجمة عنه وهو الوليد بن زيدان انما توفى فى 14 رمضان سنة 1045هـ/1635م، ثم تبدلت الاحوال السياسية بالمغرب اثر وفاته مما يظهر ان له دخلا فى اتجاه المترجم للبقاع المقدسة .

وهكذا تتوضح سنة رحلة الحجرى عن المغرب ، كما نتبين مدة اقامته بالمغرب التى تزيد على 38 سنة، تبتدىء من أواخر عام 1007هـ الى عام 1046، ولا شك انها مدة كافية لمغربة المترجم .

---

(1) سفارة الحجرى بأوربا وماجرياتها : ورد حديثهافى «العز والمنافع» ورقة 117 أ، وفى «التلخيص الوجيز لكتاب ناصر الدين ، على القوم الكافرين» المشار لهصدر هذه الترجمة .

(2) التلخيص الوجيز لكتاب ناصر الدين ، اما استاذ الحجرى فى التنجيم فتوجد ترجمته فى «صفوة من انتشر» ص 104 وفى «الاعلام ، بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام» ج 2 ص 82 ـ 83 ، وقد سمى فى المصدرين احمـد بن قاسم بن الفقيـه معيـوب ـ بالعين ـ الاندلسى .

(3) «العز والرفعة» ورقة 117 أ ، وانظر ترجمة السكتانى فى «نشر المثانى» ج 1 ص 201 .

(4) «انعز والمنافع» ورقة 112 ب، وهنا نذكر ان الحجرى ينبغى ان يلحق بلائحة «حجاج الاندلس بعد سقوطها» وهو موضوع تناوله الاستاذ الكبير عثمان الكعاك ، وكتب عنه بحثا فى مجلة «الثريا» السنة الثانية : العددين 11 و12 وقد تحدث فيه عن الحاج المنزونى .

(5) راجع ترجمة الاجهورى فى «صفوة ما انتشر» ص 126 .

(6) «العز والمنافع» ورقة 117 أ ، ب.

(7) انظر ص 4 من هذا البحث

(8) التلخيص الوجيز لكتاب «ناصر الدين»

(7)

هذا وقد انتقل الحجرى من مصر الى تونس ، واثار اعجابه بتونس واليها الداى ابو المحاسن مراد، فتحدث عن سيرته ومنشآته الدفاعية (1) ، وفى مدينة تونس تعرف بأحد المهاجرين الاندلسيين (2) وهو ابراهيم غانم الشهير بالاسبانية بالرباش ابن احمد غانم الاندلسى ، واصله من تدلش من اقليم غرناطة ثم انتقل منها الى جهة قرب مدينة غرناطة وهناك نشأ واقام الى ان أجلى عنها ـ ضمن بقايا المدجنين ـ الى اشبيلية ، ولما اجلى الاسبان هؤلاء من شبه الجزيرة هاجر الى تونس التى وصلها اخريات أيام الداى عثمان (3).

وقد اطلع ابراهيم غانم الحجرى على كتاب وضعه فى فن المدفعية باللغة الاسبانية ورغب منه ان ينقله الى اللغة العربية التى يجهلها واضع النص الاسبانى(4)، فاستجاب الحجرى لهذه الرغبة الكريمة ، وقام ـ كما سيذكر ـ بتعريب الكتاب الذى فرغ منه فى 10 ربيع الثانى سنة 1048 هـ (5).

تلك هى المعلومات المتصلة بحياة الحجرى ، مقتبسة من موضوعاته الثلاثة المشار لها صدر هذه الترجمة ، مع ما انضاف لها من التوضيحات والتعاليق.

ولسوء الحظ فان هذه المعلومات تنقطع اثناء مقام المترجم بتونس ، وبالضبط من عاشر ربيع الثانى عام 1048هـ ، وبعد هذا لا ندرى هل بقى هذا بتونس ام انتقل عنها ؟ وهل عاد الى المغرب الاقصى ؟ وما هو نشاطه العلمى بعد تعريب الكتاب المذكور ؟ وما هو تاريخ وفاته ؟ واين توفى ودفن ؟ كل هذه اسئلة ستظل بدون جواب ما دمنا لم نقف على مصدر او مصادر جديدة عن حياته .

ورغما عن هذا كله ، فان المعلومات التى امدتنا بها موضوعات الحجرى الثلاثة مفيدة جدا عن حياته ، ولولاها لكان فى عداد المجهولين .

أ ـ كتاب «العز والمنافع» :

والآن وقد قدمنا ـ حسب الامكان ـ حياة الحجرى ننقل الحديث الى نشاطه فى ميدان الترجمة ، ونذكر انه قد قام بتعريب مؤلفين اثنين : احدهما فى فن المدفعية ، والثانى فى علم التعديل ،ومنهما ـ فقط ـ يستفاد اشتغاله بالتعريب العلمى ، وسندرسهما ـ تباعا ـ فيما يلى :

وفاقا لما ذكر آنفا ، قام الحجرى بترجمة مؤلف ابراهيم غانم فى المدفعية ، من الاسبانية الى العربية ، ولما اتم هذ «الترجمة سماها ـ باتفاق مع مؤلف الاصل الاسبانى ـ : «كتاب العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع» (6) ، ومن حسن الحظ ان ابقى الزمان على هذه الترجمة التى توجد منها نسخ فى المغرب والجزائر وفيينا وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة (7).

وفى المغرب بالخصوص يعرف منه ـ لحد الآن ـ ثلاث نسخ : الاولى بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 87 ، والثانية بنفس الخزانة وتقع آخر مجموع يحمل رقم د 1342 وهى ناقصة من آخرها . اما النسخة الثالثة فهى محفوظة بالمكتبة الملكية بالرباط، وتحمل رقم 2646.

---

(1) «العز والمنافع» ورقة 113 ب ـ 114 أ، ب، والداى مراد هو المعروف بأسطا مراد ، وقد بويع بالولاية على تونس فى 23 رجب 1047هـ. وكانت وفاته ليلة الاحد18 ربيع الاول 1050هـ. ولدولته ذكر فى «الحلل السندسية ، فى الاخبار التونسية» ، تأليف المؤرخ التونسى محمد الوزير خ. وكذا فى المؤنس لابن ابى دينار ص 187 ـ 188 .

(2) «العز والمنافع» ورقة 112 ب.

(3) المصدر الاخير، ورقة أ ، ب و112 أ، أما الداى عثمان فقد توفى يوم الاحد 13 رجب 1019 هـ. ودولته مذكورة فى «الحلل السندسية» و«المؤنس» ص 181 ـ183 .

(4) «العز والمنافع» ورقة 112 ب.

(5) المصدر الاخير ورقة 108 أ.

(6) هكذا ورد اسم هذه الترجمة «اثناء الخاتمة» ورقة 115 أ، اما العنوان الذى وضعه لها اول الكتاب فقد جاء هكذا : «كتاب العز والرفعة والمنافع ،للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع» .

(7) جاءت الاشارة لهذه النسخ الموجودة خارج المغرب فى تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ج. 3 ص 339.

ويأتي في مقدمة النسخ المغربية : مخطوطة الخزانة العامة التي تحمل رقم ج 87، فهي ـ فيما يظهر ـ مكتوبة تحت اشراف المعرب نفسه الذي يوجد خطه في هوامشها بالالحاق والتصحيح ، وهي ـ ايضا ـ تنفرد بالخاتمة المكتوبة بقلم المعرب نفسه ، وبما يتبعها من الملاحق .

ولهذا ستكون هذه النسخة هي معتمدنا فيما سنحاول من دراسة لهذه الترجمة ، كما كانت ـ سابقا ـ مرجعا لما اقتبسه منها هذا البحث عن حياة الحجري .

ان الكتاب يتناول فن المدفعية ، ويشتمل على افتتاحية ، وخمسين بابا ، وخاتمة ، وفي الافتتاحية يقدم مؤلف النص الاسباني معلومات عن حياته بالاندلس وتونس :

فيتحدث عن اسفاره البحرية بين اسبانيا وامريكا، ومخالطته ـ اثناء هذه الاسفار ـ للمدفعيين الاسبان. وحضوره مداولاتهم المدفعية التي كانوا ـ في بعض الاوقات ـ يرجعون فيها الى الكتب المؤلفة في هذا الفن، وقد كان المؤلف يحفظ بعض ما يتفقون عليه ، ويباشر بيده العمل المدفعي .

ثم يذكر خروجه من الاندلس واستقراره بتونس ، حيث توظف مع الداي عثمان (1) في البحرية التونسية، وتراس على فرقة قوامها 200 من الاندلسيين الذين صار يسافر بهم للجهاد في البحر ، وقد اسر في ثانية سفرة ، واستمر في الاسر سبع سنوات ، عاد بعدها الى تونس ، في ايام الداي يوسف (2) ، وهو الذي امره بالجلوس في حصن حلق الوادي . فاشتغل بمباشرة العمل في المدافع بيده ، وبدراسة الكتب الموضوعة في هذا الفن ، وهكذا اكتملت ثقافته المدفعية التي باشر دراستها قراءة وتطبيقا .

وحينما عاين المدفعيين التونسيين لا خبرة لهم بهذا الفن ، حفزته غيرة اسلامية الى وضع كتاب في فن المدفعية لتوجيه هؤلاء ، وارشاد رؤسائهم ، وقد وضعه باللغة الاسبانية التي لا يعرف سواها ، وترجى ان يتم نقله للعربية ، حتى يتمكن من توزيع نسخ منه على بعض الممالك الاسلامية .

وهنا ينتقل المؤلف الى الباب الاول الذي هو كمدخل لموضوع الكتاب : فيذكر تاريخ اختراع البارود ، ويصحح انه انما وقع سنة 768هـ/1366م ، كما يذكر تنظيمات فرق المدفعيين بأوربا وامريكا .

وبعد هذا يصل الى صميم موضوع التأليف فيتناول المواضيع التالية موزعة على بقية ابواب الكتاب 2 ـ 50:

شرح ما تتركب منه الآلات البارودية المعدنية

ـ انواع المدافع الثلاثة ، وهي : النارية ، ومدافع التهديم ، ورميها يكون بكور من حديد ، الثالثة المدافع الحجارة التي ترمي بكور من حجارة ـ مسائل تتعلق بالمدافع الغير الحجارة ـ السبب الموجب لكون المدافع النارية على الحالة التي هي عليها في طولها وعرضها ، وعمارتها ـ الرمي بالقياس ، وما يحتاجه المدفعي لهذه العملية من آلات هندسية ومعرفة ـ عمل السرائر والعجلات للمدافع ـ مسائل عن المدافع الحجارة ـ معادن انواع المدافع ـ اختبار الآلات الجديدة الخارجة من معمل التذويب ـ ذكر الهواء الذي يكون لكل كورة ـ عملية استخراج الكورة الناشبة في داخل المدفع ـ عملية نزع المسمار الذي يضعه العدو في بخش المدفع ـ كيفية تبريد المدافع ـ المسطرة العددية التي يعرف بواسطتها ما تزن كل كورة «وهذا المبحث يؤكد انه من اسرار المهنة» ـطريقة معرفة البعد او الارتفاع ـ اختبار البارود لتعرف جودته او رداءته ـ كيفية عمل البارود ـ طريقة اصلاح البارود الفاسد ـ طريقة استخراج ملح البارود ، مع ذكر المواضع التي يوجد بها ، علاوة على الاماكن المشهورة ـ اختبار ملح البارود لمعرفة خلوصه وكيفية تخليصه ـ الكور المدبرة بالنيران ـ التراكيب التي توضع في هذا الكور ـ المواضع الصالحة للمدافع ـ صفة عمل السلال التي يتستر بها المدفعيون من رمي الاعداء ـ طريقة معرفة العدو المحاصر هل ينقب تحت الارض ؟ ـ حيل لتركيب المدافع ـ كيفية السفر بالمدافع في البر ـ عمل القناطر على الاودية ـ سر

(1) انظر عنه ص. 6 تعليق 8.

(2) صار على راس الولاية التونسية اثر وفاة الداي عثمان ، وتوفي ليلة الجمعة 23 رجب 1047 هـ. ودولته مذكورة في«الحلل السندسية» وفي «المؤنس»ص 183 ـ 187 .

فرقعة ودوى البارود ـ ما يحتاجه المدفعي للسفر في البر والبحر بآلات البارود ـ كيفية استخراج ملح البارود من التراب وطريقة تخليصه ـ طريقة جديدة لعمل البارود حسب آخر ابتكار لصنعه .

هذه أهم المواضيع الرئيسية للكتاب الذي وضحه المؤلف برسوم تحمل طابعا اسبانيا ، وتبلغ 70 رسما لاشكال المدافع وتوابعها .

وقد جاء في آخر الباب 48 : أن المؤلف ابتدأ كتابة النص الاسباني ـ في حصن حلق الوادي من مدينة تونس ـ عام 1040هـ/1630م ، ثم اكمله في 22 ربيع النبوي عام 1042هـ/1632م (1) .

اما اسلوب الترجمة فواضح سهل ، تتخلله تعابير عامية ، ومن حسن الحظ ان هذه الترجمة تمت بتعاون بين المؤلف والمعرب الذي كان مهما اشكل عليه شيء في النص الاسباني ، يرجع الى المؤلف ليستوضح رأيه ثم يثبت الترجمة طبق تفسيره (2).

والكتاب مذيل بخاتمة من وضع المعرب ، وهي مما انفردت به النسخة التي اعتمدها هذا البحث ، وهي ـ ايضا ـ أهم مراجعنا عن حياة الحجري ، وقد تحدث فيها عن جوانب من حياته بالاندلس والمغرب ، وذكر رحلته للشرق وتونس التي تعرف فيها بمؤلف الكتاب المترجم ، وقد قص حديث ترجمته لهذا الكتاب وخطته فيها ، كما سجل اعجابه بوالي تونس الـــداي ابي المحاسن مراد «أسطا مراد» واسهب في ذكر سيرته ومنشآته الدفاعية ، وسوى هذا ، فان الخاتمة تلم ببعض مظاهر العلاقـــات بين المسلمين والمسيحيين آنذاك .

وقع الفراغ من الترجمة وخاتمتها في 10 ربيـــع الثاني عام 1048هـ/1638م (3)، عـــدد اوراق مجموع الترجمة والخاتمة : 117 (4) ، مسطرة 22، مقياس : 300/ 210، خط اندلسي يميل للتونسي ، وهو خط جميل واضح ملون مصحح .

ويوجد ـ بعد الخاتمة ـ ملحق يشتمل على ثلاثة تنويهـــات بالكتاب : الاول صادر عن المفتي الحنفي بالديار التونسية السيد احمد الشريف الحنفي (5) ومكتوب بخطه الشرقي ، وفيه يشهد بأنه طالع الكتاب ـ برغبة من معربه ـ فوجد فيه نفعـا للمسلمين ، وارشادا للمعلمين والمتعلمين ، من اهل صناعة المدافع ورماة المسلمين .

الثاني عبارة عن قصيدة دالية من بحر البسيط ، تقع في 11 بيتا ، وهي من شعر الاديب التونسي عبد الرحمن بن مسعود الجبالي (6) الذي ذيل بها التنويه الاول وكتبها بخطه التونسي ، وفيها يمدح الكتاب ومؤلفه ابراهيم غانم ، ويقول في مطلعها :

هذا المدافع عنا كل مهلكـــة
من العدو اذا ما أمنـــا وعدا
أهدى لنا حكما تبدى لمتنـــا
نهج الحروب على شكل وما عهدا

الثالث كتبـــه بخط «التونسي محمد بن عثمان الحشاشي الشريف (7) متفقد خزائن الكتب بالجامع الاعظم والمكلف بتراتيبها .

وهو متأخر عن التنويهين السابقين ، حيث ان هذا انما كتب في 2 محرم سنة 1320 / 1902م ، وفيـه يعرف بقيمة الكتاب ، ويردد ما قاله المعرب : من ان

---

1) «العز والمنافع» ورقة 108 أ.
2) المصدر ورقة 114 ب.
3) المصدر ورقة 108 أ.
4) تبتدىء الخاتمة اثناء ورقة 112 ب وتنتهي اثناء الورقة 117 ب.
5) تركي ولد بتونس ودرس بها ، وله ترجمة في «شرح الرجزية الموضوعة في المفتين الحنفية بتونس» النظم والشرح لمحمد بيرم الثاني التونسي ص 117ـ 120 من المجموع الذي يشتمل على هذا الشرح ، والمحفوظ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 1102.وتوجد ترجمته ـ ايضا ـ في «ذيل بشائر اهل الايمان» ص 75 ـ 76 .
6) لم اقف على ترجمته .
7) له ترجمة في «الاعلام» لخير الدين الزركلي ج 7 ص 146 ، وفي «معجم المؤلفين» لمحمد رضا كحالـة ج 10 ص 282 .

هذه الترجمة اول كتاب ظهر بالعربية فى هذا الفن كما يسجل ان بواسطته تعلمت ملوك تونس اعمال المدافع والبارود وآلات الحرب .

هذا ولا يفوتنا ان نذكر ان هـــذه النسخة التى ندرسها مصدرة بفهرس موسع للابواب ، كما يوجد على اولها ملكية بخط شرقى ، تحمل اسم : «محمود باكير» .

وتتجلى قيمة الكتاب فى جدة الدراسات التى قام بها عن الآلات المدفعية وتوابعها ، وفى تصنيف هذه الدراسات ، برسم العالم الاسلامى الذى كان ـ اذذاك ـ فى حاجة ماسة لها .

ويزيد فى اهمية الكتاب ان تكون مواده مقتبسة من معارف دولة كانت ـ آنذاك ـ تعد من مصاف الدول الطليعة فى الميدان المدفعى ، فان المعلومات التى دونها المؤلف فى كتابه ، انما استمدها مـــن مخالطته للمدفعيين الاسبانيين ، ومن مباشرته للعمل المدفعى تحت انظارهم ، ومن دراسته لكتب مدفعية اسبانية .

وبهذا يقدم الكتاب آخر ما وصل اليه تطور الفن المدفعى فى اوربا اوائل عصر النهضة .
وهكذا يكون فى ترجمته للعربية افادة ثمينـــة للعالم الاسلامى ، وفى صدد هذه الافادة يقول المعرب عن الترجمة العربية : «وظهر لى انه اول كتاب الف بالعربية فى هذا الفن» (1) .

ومما يدل على تطلـع الملوك المسلمين ـ آنذاك ـ للاستفادة من مثل هذا الكتاب ما ذكره المعرب عن الملك المغربى زيدان السعدى من انه كان يبذل تشجيعات سخية لمسيحى اطلعه على بعض اسرار الفن المدفعى، على حين ان هذا السر لا يعدو ان يكون مسألة واحدة بين المواضيع المدفعية الكثيرة التى درسهـــا هـــذا الكتاب (2).

والى جانب المعلومات المدفعية فان مقدمة وخاتمة الكتاب تقدمان معلومات نادرة عن حياة كل من المؤلف والمعرب ، مع بعض احوال الاندلس والمغرب وتونس حينئذ .

كما ان الباب الاول من الكتاب ، يتحدث عن تاريخ اختراع البارود ، ويدقق انه انما وقع اكتشاف سره سنة 768هـ/1366م ، كما يصحح انه فيما قبل هذا التاريخ لم تعرف آلات بارودية وانما كانت حيل على وجوه عديدة نارية وغيرها (3).

اما اثر هذه الترجمة فقد ظهر فى تونس بالخصوص فقد سجل محمد بن عثمان الحشاشى التونسى فى تقريظه المشار له آنفـا : انه بواسطـة هذا الكتاب تعلمت ملوك تونس اعمال المدافـع والبارود وآلات الحرب .

وبالنسبة للمغرب وغيره من الدول الاسلاميـــة الاخرى فان موضوع تأثير الكتاب بها لا يزال بحاجة الى دراسة ، على انه من المحقق ان هذا الكتاب كان معروفا بالمغرب فى عهد قريب من تاريخ ترجمته ، وكان قد وقف عليه ابو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسى المتوفى سنة 1096هـ/1685م، فان هذا نقل عن كتاب «العز والمنافع» اواخر شرحه على النظم الذى وضعه فى العمليات الفاسية ، وذلك لما تعرض لمسألة عمل الرصاص فى الذكاة ، فقد ذكر فى هذا الموضع ما نصه :

«... لحدوث الرمى بهذه المدافع بحدوث البارود حسبما ذكر بعضهم فى تاليف له فى الجهاد وقتال العدو بالمدافع ، وانه استخرجه حكيم كان يستعمل الكيميا ، ففرقع له ، فاعاده فاعجبه ، فاستخرج منه هذا البارود سنة ... وستين وثلاثمائة والف عجمية، ويوافقه فى العربى سنة ثمان وستين وسبعمائة .

---

1) «العز والمنافع» ورقة 114 ب.
2) المصدر الاخير ورقة 116 ب.
3) تاريخ اختراع بارود المدافع ، وتعيين مخترعه: مسألة شغلت بال طائفة من الباحثين ، وبالخصوص رجال الاستشراق الذين يذكر منهم على سبيل المثال: يوسف اشباخ فى «تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين» : الترجمة العربية ج 2 ص 346و58 ـ347 . وسيديو فى «تاريخ العرب العام» : الترجمة العربية ص 489 ـ 490 ، الثالث غوستاف لوبون ،فى «حضارة العرب» : الترجمة العربية ص 576 ـ 580 ، وانظر «الاستقصا» ج 2 ص 18 الطبعة الاولى .

فهذه الفقرات تلخيص واضح لما ذكره كتاب «العز والمنافع» فى الباب الاول عن اكتشاف البارود (1).

وبهذا يتضح ان هذا الكتاب عرف بالمغرب فى زمن قريب من عهد ترجمته .

ب ـ ترجمة الرسالة الزركوطية :

الى جانب ترجمة كتاب «العز والمنافع» ـ وهو فى فن المدفعية ـ قام الحجرى بتعريب مؤلف فى علم التعديل، وهو رسالة زيج زكوط .

توجد نسخة من هذه الرسالة بالمكتبة الملكيـــة بالرباط ، وتقع ضمن مجموع يحمل رقم 1433، ومنها يستفاد قيام الحجرى بهذه الترجمة ، كما يوجد بنفس المجموع جداول متصلة بالرسالة ، وهى نفس الزيج المنسوب لزكوط .

ان زكوط هذا او ازكوط كما يلقبه البعض (2) : هو اسرائيلى يسمى ابراهيم (3)، وينتسب الى مدينة اندلسية هى مدينة سلمنكة (4) التى وضع الزيج على طولها (5)، وكان يعيش فى القرن التاسع الهجرى ، وبالضبط كان يكتب زيج رسالته سنة 877هـ/1472م(6).

امـا الزيج فهو الجداول المذيلـة بها الرسالة ، والموضوعة لتعديل الكواكب ، وقد بلغ عددها 248 جدولا موزعة على 248 صفحة ، حيث ينقسم كل جدول ـ طولا وعرضا ـ الى مربعات ، يرسم بداخلها الاعداد المعنية بالامر .

ووظيفة هذه الجداول : ان يستخرج ـ بواسطتها ـ الحركات الطويلة والعرضية ، للكواكب المرصودة ، حتى يعرف موضع الكوكب المرصود فى دائرة فلك البروج لاى وقت فرض ، كما يعرف منها ـ ايضا ـ زمن حصول الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وما الى ذلك .

هذا هو الزيج الزكوطى ، وهو ـ ايضا ـ مدلول سائر الزيجات الفلكية .

اما رسالة الزيج فهى مدخل ارشادى يوضح خطة العمل فى الجداول ، وهى التى قام الحجرى بترجمتها الى العربية (7)، وقد جاءت هذه الترجمة ـ حسب النسخة الوحيدة التى نعتمدها ـ خالية من الخطبة التى قد تشرح باعث الترجمة ومنهجها وزمنها ومكانها، وفى آخرها ورد اسم المعرب هكذا : «احمد بن قاسم ابن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجر (تصحيف الحجرى) الاندلسى» .

وهذا يصحح نسبة هذه الترجمة للحجرى ، وقد تأكد هذا فى خطبة «تحفة المحتاج فى علم التعديـل بالازياج» ، وهو مؤلف سنتحدث عنه بعد .

وكلا المصدرين يقرر ان الرسالة الزكوطية حررها مصنفها بالعبرانية ، ومنها نقلت الى اللغة اللاتينية ، ثم نقلت عنها الى الاسبانية ، وهى اللغة التى قـــام الحجرى بالترجمة منها الى العربية ، تشتمل هـذه الترجمة على 24 بابا معنونة هكذا :

الباب الاول فى معرفة الطالع وتسويـة البيوت الاثنى عشر على اقرب وجه ، الباب الثانى فى معرفة موضع الشمس من البروج ، الباب الثالث فى معرفة دخول الشمس بأوائل البروج الاثنى عشر، البابالرابع فى معرفة موضع القمر من البروج ، الباب الخامس فى تعديل راس التنبين، الباب السابع فى معرفة حركة القمر، البابالثامن فى معرفة الاجتماعات والاستقبالات، الباب التاسع فى الكسوفات ، البـاب العاشر فى تعديل موضع زحل المحقق ، الباب الحادى عشر فى معرفة حركة زحل لكل يوم ، الباب الثانى عشر فى معرفة عرض زحل ، الباب الثالث عشر فى تعديل المركز والحصة بعد مضى الدور الاول ، الباب الرابع

---

1) ورقة 3 ب.
2) هو المعدل عبد الكريم أغبال فى رسالته الآتية.
3) المصدر الاخير .
4) الرسالة الزكوطية التى تصف سلمنكة بانهامدينة العلوم ببلاد الاندلس ، وهذه المدينة هىالمعروفة عند العرب بطلمنكة ، وتقع على بعد 110 ميل من مدريدالى غربى الشمال الغربى .
5) الرسالة الزكوطية .
6) المصدر .
7) لم ندر ما اذا كان الحجرى هو الذى قام بتعريب اسماء الجداول ، وما فيها من الالفـاظ ، حيث ان محتويات هذه الجداول منقولة ـ ايضا ـ الى العربية.

عشر فى معرفة حركة موضع المشترى ، الباب الخامس عشر فى معرفة حركة عرض المشترى ، الباب السادس عشر فى معرفة الحركة المحققة للمشترى ، الباب السابع عشر فى معرفة موضع المريخ بالتحقيق ، الباب الثامن عشر فى معرفة حركة المريخ فى كل يوم، الباب التاسع عشر فى معرفة حركة العرض للمريخ ، الباب الموفى عشرين فى معرفة الموضع المحقق للزهرة، الباب الحادى والعشرون فى معرفة الحركة المحققة لعرض الزهرة ، الباب الثانى والعشرون فى الموضع المحقق للكاتب ، الباب الثالث والعشرون فى معرفة حركة عطارد ، الباب الرابع والعشرون فى معرفة النمودار : وهو معرفة السنة المحققة التى كان فيها ميلاده بطليموس .

هذه ابواب رسالة الزيج الزكوطى المعربة طبق ما وردت بها ، مع تعديلات توضيحية يسيرة مقتبسة من بعض الرسائل المؤلفة حول هذا الزيج(I) .

اما لغة الترجمة فهى واضحة سهلة فى الاكثر ، ويقع فى بعض تعابيرها تعقيد ، وتوجد هذه الترجمة مع الجداول المتصلة بها ضمن مجموع المكتبة الملكية الآنف الذكر ، عدد صفحات الرسالة 10، مسطرتها مختلفة ، خطها مغربى متوسط ملون مجدول بـه تصحيف يسير ، وعدد صفحات الجداول 248 حجم الجميع 205/290 .

وتبدو قيمة ترجمة هذه الرسالة ، فى تمكينهـا لقراء اللغة العربية من الاستفادة من الزيج الزكوطى، وهو قد قرب الاعمال التعديلية اكثر من زيج ابـن البنا (2) ، الذى شاع ـ فى المغرب بصفة خاصة ـ منذ تأليفه ، وصار مرجعا لدراسة تعديل الكواكب ، حتى اذا ظهر هذا الزيج الزكوطى اخذ يزاحمه ، لما كان لا يحتاج لكثرة الاعمال الحسابية التى يحتاجها زيج ابن البنا .

اما اثر هذه الرسالة المعربة ، فقد كان بارزا فى المغرب الاقصى بالخصوص ، فان المغاربة هم واضعو المؤلفـات التى كتبت لتكميل الرسالـة الزكوطيـة وتوضيحها ، وهذه المؤلفات تدل ـ بدورها ـ على مدى اشتغال المغاربة بهذه الرسالة وزيجها ، وقد تدل ـ ايضا ـ على ان الحجرى انما عرب تلك الرسالة اثناء وجوده بالمغرب ، بما انها اشتهرت به دون سواه من الاقطار .

هذا ، ولكى يتاكد من فعالية الرسالة الزكوطية وزيجها بالمغرب نستعرض طائفة من المؤلفات المغربية المشار لها ، واولها : رسالة الفها عبد الله اصناك المراكشى (3) على الجداول الزكوطية ، ثانيا : تعاليق وضعها عبد الله بن عبد القادر ابو شيـــخ اللخمى القصرى (4)، وهمش بها على الرسالة الزكوطية وعلى رسالـة اصناك المراكشى المذكور اولا ، وقـد ورد ذكرهما ـ معا ـ فى مراجع «تحفة المحتاج» تالية الذكر ولم اقف عليهما .

الثالثة : «تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والازياج» كتبها مؤلف مغربى لم يذكر اسمه ، وضمنها تكميلات وتوضيحات للرسالة الزكوطية ، ورتبها على ثمانية ابواب ، مصدرة بخطبة ابانت عن قيمة الزيج ومنهاج العمل فى تحفة المحتاج ، وهذا اهم ما جاء فى الخطبة.

«...وبعد : فاعلم ـ رعاك الله وحفظك ـ انى لما رأيت (تصحيف اردت) الشروع فى علم التعديـل والاخذ فيه ، ووقفت على بعض الازياج التى الفهـا زكو (ط)، فرايتها سهلة المأخذ ، لا تحتاج الى كثرة الاعمال الحسابية ، كما يحتاجها زيج ابن البنا ... وقد كنت اطلعت على رسالة الزيج التى الفها مصنفها باللسان العبرانى ثم حولت الى لغـة اللتين ، ومن اللتين حولت الى لسان الزمنض ، الى لغة العرب (كذا) عبد الله ... احمد بن قاسم بن حمود بن الفقيه قاسم

I) يتعلق الامر برسالتين سيتناولهما هذا البحث بعد ، وهما «تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والازياج» مع «رسالة الانوار ، فى التعديل بالادوار» .

2) هو احمد بن محمد بن عثمان الازدى المراكشى المتوفى عام 721هـ/1321م ، وزيجه هو : «منهـــاج الطالب ، لتعديل الكواكب» مخطوط محفوظ فى عدة خزائن خاصة وعامة .

3) لم اقف على ذكره الا عند مؤلف «تحفة المحتاج» الذى يصفه بالفقيه المعدل .

4) ورد ذكره فى خطبة كل من «تحفـة المحتاج» و«كنز الاسرار» وهما ـ معا ـ ستدرسه هذه العجالة ويزيد المصدر الثانى فى وصف ابى شيخ بانه احد شراح «روضة الازهار ، فى علم وقت الليل والنهار» للجادرى .

الجمدرى (تصحيف الحجرى) الاندلسى ... هكـــذا وجدته بخط سيدى عبد الله بن عبد القادر ابى شيخ اللخمى رحمه الله تعالى ، فرايت هذه الرسالة ، قد اخلت بكثير من الابواب المهمـة ، المحتاج اليها فى كثير من الجداول ... الى ان وقفت على رسالة الفها الفقيه المعدل ، سيدى عبد الله اصناك المراكشى على الجداول المذكورة ، قد اشتملت على كثير من الابواب التى خلت منها رسالة المؤلف المذكـــور ، غير انها – ايضا – قد خلت من بعض الابواب المهمة التى يتوقف على معرفتها العمل ، ويحصل بها الامـــل ، فرايت – لاجل ذلك – ان اجمـع رسالة تشتمـل على كلتـا الرسالتين واثبت فيها جملة الابوات المهمة ، واضيف الى ذلك ما يتوصل به الى ادراك تاريخ المسيح عليه – وعلى نبينا – افضل الصلاة والسلام ، لان الاعمال كلها متوقفة عليها (كذا) ، فهو من الامور الواجبة ، لا بد منه لكل طالب ، فمن لم يعرف التاريخ المذكور ، لا يستقيم له فى هذه الازياج عمل ، واثبت فيها ايضا ما وجدت من الطرر مكتوبا عـلى الرسالتين ، بخط سيدى عبد الله ابى شيخ ، زيـــادة فى الايضاح والبيان ، كما ستقف على ذلك كله ، ان شاء اللـه تعالى ، وجعلت فيه من الابواب ثمانية ...»

هذا اهم ما ورد فى افتتاحية «تحفة المحتاج ، فى علم التعديل والازياج» .

توجد نسخة منها اول مجموع المكتبـــة الملكيـة الآنف الذكر ، والذى يحمل رقم 1433 ، خطها مغربى متوسط ملون مجدول ، به بعض تصحيف ، مقياس 205/290 ، عدد الصفحات 7.

الرسالة الرابعة : «رسالة الانوار ، فى التعديـل بالادوار» تاليف ابى الربيع سليمان بن احمد الفشتالى الفاسى (1) المتوفى سنة 1208هـ/1793م .

قال فى خطبتها : «...وبعد : فلما كانت صناعـة الزيجات ، من اجل ما توصل به لاحـــوال الخنس والمستقيمات ، وكان كتاب ضوابط الادوار فى الحركات لزكوط ، فى ذلك وحيدا كفيلا بالغايات ، رايت ان اتحف طالبه بما يلح به على المخدرات ، متحريا هجنة المترجم ، مع فوائد وزيادات فى هذه الرسالة».

عدد ابوابها سبعة عشر ، ومنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط آخـر مجموع يحمل رقم ك 1468 ، من ص 278 الى ص 303 ، خط مغربى متوسط ملون، مسطرة 25 ، مقياس 150/200 .

فهذه اربـع رسائـل شاهدة للاثـــر الـذى اثرتـه – بالمغرب – الرسالة الزكوطية المعربة وزيجها .

4 – المعلم يوسف الاندلسى :

ان هذا ينسب له البعض تعريب الرسالة الزكوطية، ويعنى بهذا البعض : المعدل عبد الكريم بن على أغبال فى «رسالته» التى وضعها على زيج زكوط ، فقد ذكر ان المعلم يوسف الاندلسى ترجم الرسالة الزكوطية من الاسبانية الى العربية بمدينة مراكش ، وانه اول من قام بهذه الترجمة .

فهل هذا يعاكس ما اسلفته هذه العجالة من نسبة تلك الترجمة للحجرى ، نسبة مستقاة من نفس هذه الترجمة الاخيرة ، ومن بعض الذين كتبوا حولها ؟

يبدو ان لا معاكسة ولا معارضة ، وان هناك ترجمتين اثنتين للرسالة الزكوطية : الترجمة الحجرية ، مع هذه التى قام بها المعلم يوسف ، ويؤيد هذا ما ذكره أغبال : من وصف هذا المعلم بانه اول من قام بتعريب الرسالة الزكوطية ، فان هذه الاولية تؤذن بترجمـة اخرى لهذه الرسالة بعد ذلك ، وهى الترجمة الحجرية، وعلى هذا نستفيد ان تلك الرسالة عربت مرتين ، كما نستفيد اسما جديـــدا ورابعا لاحد رجال التعريب بالمغرب ، وهو المعلم يوسف الاندلسى نزيل مراكش، والذى لم يحدد المصدر الذى اورده : تاريخ قيامـه بهذه الترجمة .

على اننا اذا حاولنا معرفة هذا التاريخ – ولو على جهة التقريب – ينبغى ان نتذكر ان تعريب الرسالة الزكوطية وقع بعد سنة 877هـ/1472م ، وهى تاريخ كتابة الزيج ، ونتذكر – ايضا – ان هذه الرسالـــة وضعت باللغة العبرانية ثم ترجمت عنها الى اللاتينية، ثم من هذه اللغة الى الاسبانية ، وهى التى وقع النقل عنها الى العربية ، وبديهى ان هذه الترجمات الثلاث

1) له ترجمة فى «السلوة» ج 3 ص 115 – 116 .

لم تقع فى ازمنة متصلـــة ، وانما وقعت فى فترات متقاطعة ، يدل لهذه قول رسالة أغبال عن الرسالة الزكوطية : «وكانت اولا مكتوبة بالقلـم العبرانى ، ثم كتبت بخط اللطين ، ثم نقلت منـــه بخط روم اسبانية» .

فهذا التعبير بثم يفيد ان التعريب وقع بعد تاريخ النص العبرانى بزمن ليس باليسير .

كما ينبغى ان نتذكر ـ مع ذلك ـ ان هذه الترجمة سابقة على الترجمة الحجرية التى يقدر انها وقعت خلال النصف الاول من القرن II هـ.

وهكذا يستنتج من هذ «التقديرات ان ترجمة المعلم يوسف وقعت فى القرن العاشر او اوائل القرن IIهـ، اى قرب العصر السعدى او فى نفس هذا العصر الذى يبتدى حدود سنة 930هـ فى مدينة مراكش البلد الذى كانت فيه الترجمة .

اما نص هذه الترجمة فلم اقف عليه ، وانما اشارت له الرسالة الاغبالية ، التى ذكرت ان المعلم يوسف الاندلسى لم يقم بترجمة الرسالة الزكوطية بكاملها ، وانما عرب منها ما قدمته الرسالة الاغبالية فى تسعة عشر بابا هكذا :

الباب الاول فى معرفـــة الطالع وتسوية البيوت الاثنا عشر ـ الباب الثانى فى معرفة موضع الشمس ومعرفة دورها وتعديلها ـ الباب الثالث فى معرفـة ميل الشمس وحقيقته ، وهل هو شمالى او جنوبى ـ الباب الرابع فى معرفة حلول الشمس بأوائل البروج ودوره وتعديله ـ الباب الخامس فى معرفة موضع القمر ودوره وتعديله ـ الباب السادس فى معرفـة الاجتماعات والاستقبالات ودورهما وتعديلهما ـ الباب السابع فى معرفة تحقيق ساعات الاجتماع والاستقبالات ـ الباب الثامن فى معرفة عرض القمر ـ الباب التاسع فى معرفة استخراج حصة القمر ودورها وتعديلها ـ الباب العاشر فى معرفة حركة الجوزهر ودوره وتعديله ـ الباب الحادى عشر فى معرفة بعد الشمس عن الجوزهر ـ الباب الثانى عشر فى معرفـــة كسوف الشمس ـ الباب الثالث عشر فى معرفة حدود خسوف القمر ـ الباب الرابع عشر فى معرفة موضع زحل ودوره وتعديله واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضـه ـ الباب الخامس عشر فى معرفة موضع المشترى ودوره واستقامته ووقوفـــه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصتـــه وعرضه ـ الباب السادس عشر فى معرفة موضع المريخ ودوره واستوائه فى البروج واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركزه وحصته وعرضه ـ الباب السابع عشر فى معرفة موضع الزهرة ودورها وتعديلها واستقامتها ووقوفها ورجوعها ومعرفة مركزها وحصتها وعرضها ـ الباب الثامن عشر فى معرفة موضع عطارد ودوره وتعديله واستقامته ووقوفه ورجوعه ومعرفة مركـزه وحصتـــه وعرضه ـ الباب التاسع عشر فى معرفة المطالع الاستوائية .

واذا حاولنا ان نتعرف الاثر الذى اثرتـه هـــذه الترجمة ، فلا نعدم اصداء لها ـ بدورها ـ فى بعض الموضوعات المغربية .

واول ذلك رسالة المعدل أغبال (I) المتكررة الذكر ، وقد عنيت بدراسة الابواب 19 الآنفة الذكر ، بعد ما مهدت لهذه الدراسة بافتتاحية عن اصداء «الرسالـة الزكوطية» وعن مصادر ومنهج المؤلف ، وهى التى نقتطف منها ما يلى :

«قال كاتبه ومؤلفه : عبد الكريم بن على أغبال ، رحمه الله ... وبعد : فهذه رسالة فائقة لطيفة ، فى كيفية التعديل بالزيج الذى وضعه ابراهيم اليهودى المعروف بأزكوط ...»

وهذه الرسالة قد جمعتها من رسائل عديدة، وكلها فى غاية ما يكون من الاختصار ، حتى ان من تمسك بالبعض منها لم يحصل على طائل ، وهى كلها مأخوذة من رسالة مؤلف الزيج ، وكانت ـ اولا ـ مكتوبـة بالقلم العبرانى ، ثم كتبت بخط اللطين ، ثم نقلت منه بخط روم سبانيا ، ووجدت بيد نصرانى اسمه زمنض ، واخذها من عنده المعلم يوسف الاندلسى ، وهو اول من ترجمها بالعربية فى مدينة مراكش ، فاخذ الناس منها ما قدروا على اخذه ، لصعوبة لفظها، واختصروها غاية الاختصار ، حتى اجحفوا بالكثير من عملها ، وها نحن الآن ـ بعون الله وقوته ـ جمعنا ما فى تلك الرسائل ، ولفقنا بعضها لبعض ، بعد مشورة من اخذنا عنه هذا العلم ، وموافقته على ذلك، وقد بذلنا المجهود فى بيان معانيها ، وترتيب ابوابها الاول فالاول».

I) لم اقف على ترجمته .

تقع هذه الرسالة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 2014 من ص 1 الى ص 55 ، مسطرة 18 ، مقياس 150/190 خط مغربي مستحسن ملون مجدول .

الرسالة الثانية : «كنز الاسرار ، وفيض الانوار، في تعديل النيرين والخمسة المتحيرة بالادوار» تاليف محمد بن المعطى بن احمد الطيب بن محمد مرين الرباطي الاندلسي (1)، المتوفى سنة 1223هـ/1808م .

وهي ـ بدون شك ـ موضوعة على هذ «الترجمة المتحدث عنها ، وسنرى ـ في خطبة هذه الرسالة ـ انها تحاذي ـ كثيرا ـ افتتاحية الرسالة الاغبالية الآنفة الذكر ، والموضوعة بخصوص تلك الترجمة .

الفها استجابة لرغبة الفقيه المشارك السيد التهامي ابن العلامة الشهير سيدى على بن احمد الوزاني اليملحي الحسني (2) الذى طلب منه ان يضع رسالة عن الزيج الزكوطى ، تكون جامعة لمعانيه ، ضابطة لقواعده ومبانيه .

تشتمل هذه الرسالة على 18 بابا ، مصدرة بافتتاحية عن منهج المؤلف وقيمة هذه الترجمة ، ومما جاء فيها:

«... ولفقت هذه الرسالة ، بعد ان طالعت على هذا الزيج رسائل عديدة ، غير انها في غاية ما يكون من الاختصار ، حتى ان من تمسك بالبعض منها او كلها، ربما لم يحصل على طائل ، لانها مأخوذة من رسالة الزيج ... فاخذ الناس ما قدروا عليه منها لصعوبة لفظها ، فوضعوا على هذا الزيج تلك الرسائل مختصرة جدا ، حتى جحفوا بالكثير من عملها ، فمنها رسالة الامام الجياني الاندلسي ، وهي اجلها ، ورسالة الامام البركة سيدى عبد الرحمان الفاسي ، ورسالة سيدى عبد الله بن سيدى عبد القادر ابى شيخ اللخمي القصرى ، شارح «روضة الازهار ، في علم وقت الليل والنهار» ، ورسالة الفقيه المعدل سيدى عبد الكريم المعروف باغبال ، رحم الله الجميع بمنه آمين، وليس ذلك جهلا منهم ـ رضى الله عنهم ـ وانما ذلك من عدم تبيين المترجم عن رسالة المؤلف ، لان نقل التاليف من لغة الى لغة صعب جدا ، لا سيما اذا لم يكن المعرب عارفا بالالسن ، وقد زعم كثير من الناس ان هذا الزيج سهل عمله ، وقريب فهمه ؛ وليس كما زعم ، ثم اني لم اثبت ـ في هذه الرسالة ـ عملا الا بعد ان امتحنته ، وثبتت لدى صحته».

قال في آخر الرسالة : «وافق الفراغ من جمعها بزاوية وزان ـ كلاها الله بمنه ـ وذلك بعد غروب الشمس بنصف ساعة معتدلة ، من ليلة الاحد الثاني من ذى الحجة الحرام بحساب العلامة ، الاول منه بحساب الرؤية ، من عام احد عشر ومائتين والف ، من سنى الهجرة النبوية ، على صاحبها افضل الصلاة وازكى السلام ، الموافق للسابع عشرة مايه من سنة سبعة وتسعين وسبعمائة والف ، من تاريخ السيد المسيح عليه السلام .

تقع ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم د 2027 من ص 83 الى ص 118 ، مسطرة 23 ، مقياس 175/220 ، خط مغربي متوسط به تصحيف .

وهكذا نتبين ـ مرة ثانية ـ الآثار التي كانت لهذه الترجمة الاخرى للرسالة الزكوطية .

هذا وستكون خاتمة حديث «الزيج الزكوطى» ، وخاتمة هذا البحث ايضا: ما جاء في بعض «مقيدات»(3) العلامة الكبير ابى اسحاق ابراهيم بن محمد التادلى الرباطي (4) ، المتوفى سنة 1311هـ/1894م . فقد ذكر انه درس احد ابواب «الزيج الزكوطى» على بعض علماء الرباط ، وهو «محمد الرطل» الطبيب المعدل الموسيقى، الذى اخذ عنه تعديل القمر بطريقة هذا الزيج.

وهو لم يبين الترجمة العربية التي اعتمدها في هذه الدراسة ، ولم يوضح هل هي الترجمة الحجرية او ترجمة المعلم يوسف الاندلسي ، وايا ما كان ، فان هذا يدل على ان الترجمة العربية للزيج الزكوطى ورسالته ، امتدت دراستها بالمغرب ، حتى النصف الاخير من القرن الثالث عشر الهجرى ، والله سبحانه ولى التوفيق .

الرباط ـ محمد المنوني

---

1) له ترجمة في «الاغتباط ، بتراجم اعلام الرباط»

2) له ترجمة في «الكوكب الاسعد» المطبوع ـ على الحروف ـ بفاس بهامش «تحفة الاخوان» ص 185ـ186

3) توجد ضمن كناش بمكتبة العلامة الجليل محمد بن بوبكر التطوانى بسلا، حيث وقفت عليه اثناء سنة 1374هـ/1955م .

4) من مصادر ترجمته «الاغتباط، بتراجم اعلام الرباط» .